مفهوما الشعر والشعر الحر

نزار قباني أنموذجا

أ.حسينة لعوج

جامعة تيزي-وزو.

تمهيد: يعد الشعر منذ عصور مديدة ملا ذا للإنسان للهروب من واقع الحياة الصعب، انه يعبر عن آمال وآلام صاحبه وفق نظام خاص به (بالشعر) والتي على الشاعر أن يلتزم بها، وفي الحقيقة إن الخضوع لهذا النظام يحد من طموح الشعر الذي يسعى لجعل الإنسان كالطبيعة أو كالحياة، ما جعل بعضا من الشعراء المحدثين يبتكرون طريقة جديدة للتعبير عن خلجات أنفسهم بجدية وعفوية مطلقة وهي طريقة الشعر الحر. فانكب كل مرهف حس ليبدع ويخلق في الشعر الحر. ومن أهم هؤلاء الشعراء نازك الملائكة ونزار قباني.

يعتبر الشعر من الفنون التي يسميها العرب "الآداب الرفيعة" وهي الموسيقى والرسم والشعر ومرجعها تصوير الطبيعة، فالرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان والموسيقى شأنها شأن الشعر حيث يصوران الطبيعة بالألفاظ والأنغام. فالشعر عند علماء اللغة وعلم العروض كلام موزون مقفى، يحمل في طياته معنى مفيدا. ويعرفه ابن خلدون بقوله: «الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء

منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»[1]، ويقصد هنا قواعد علم العروض للخليل الفراهيدي.

مفهوم الشعر الحر: هو نوع من الشعر الحديث يقوم في نظامه العروضي على الأمور الآتية:

1. إعادة توزيع موسيقى البحور الكلاسيكية.
2. اعتماد نظام التفعلية، بعد الاستغناء عن نظام البيت ذي الشطرين.
3. الاستغناء عن الوزن كلية (فيما عرف بقصيدة النثر)[2]، ما جعل الشعراء المحدثين

يتجهون نحو الشعر الحر لتحرره من القيود الشكلية التي تحد من قدرات الشاعر وانطلاقه في التعبير عن خوالج نفسه بجدية تامة.

أما عن أوزان الشعر الحر، فنجده يكتب على إحدى التفعيلات السبع تتكون منها البحور الموحدة التفعلية وهي:

- الكامل: متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن
- الرمل: فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن.
- الهزج: مفاعيلن مفاعيلن.
- الرجز: مستفعلن مستفعلن مستفعلن.
- المتقارب: فعولن فعولن فعولن فعولن.
- المتدارك: فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن.

أو: فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن.

وتسمى هذه البحور بالبحور الصافية لأن شطرها يتألف من تكرار تفعليه واحدة عدة مرات، كما يمكن إضافة وزن مجزوء الوافر (مفاعلتن مفاعلتن) إلى البحور الصافية.

وعلى الشاعر الالتزام بالتفعيلة الواحد من أول القصيدة إلى آخرها وليس له حرية إلا في عدد تفعيلات كل سطر على ألا يتجاوز العدد الحدود المقبولة للذوق العربي في الإيقاع.

وقد يتصرف الشاعر في شكل هذه التفعيلة، مستفيدا من الزحافات والعلل الجائرة فيها، وقد يكثر الشعر من هذه الزحافات والعلل. كما قد يعمد أحيانا إلى استخدم تفعيلات جديدة أو مزج تفعيلات بحر آخر.

ولنا أن نتساءل هنا متى بدأ الشعر الحر؟ وما الجديد في هذه التجربة؟ ومن هم أشهر رواده؟.

تقول نازك الملائكة: «كانت بداية حركة الشعر الحر في العراق (.....) وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنشر قصيدتي "الكوليرا"، وفي آذار من عام 1950م صدر في بيروت ديوان أول لشاعر عراقي جديد هو عبد الوهاب البياتي وكان عنوانه «ملائكة وشياطين»(....)[3]، وراحت دعوة الشعر الحر تتخذ مظهرا أقوى، ثم تراجعت نازك الملائكة عن قولها هذا في إحدى كتاباتها قائلة: «ثم عثرت أنا نفسي على قصيدة حرة منشورة قبل قصيدتي وقصيدة بدر شاكر السياب للشاعر بديع حقي»[4].

وقد أورد الباحث أحمد مطلوب في كتابه «النقد الأدبي الحديث في العراق» قصيدة من الشعر الحر عنوانها "بعد موتي" نشرتها جريدة العراق ببغداد سنة 1921م تحت عنوان النظم الطليق: «وفي تلك السنة المبكرة من تاريخ الشعر الحر

لم يجرؤ الشاعر على إعلان اسمه وإنما وقع (ب.ن) (...) والظاهر أن هذا أقدم نص من الشعر الحر»[5].

ويقول عمر فروخ عن تجربة الشعر الحر أنه ليس إلا فواصل مسجوعة، وإنما قد كانت معروفة منذ زمن بعيد، حتى إن أبا العلاء المعري قد خاض في هذا المجال من حيث الموضوع ومن حيث النسق قائلا:

الربيعان

حرسهما الله شهري ربيع

وما عنيت شهري

يعرفان في السنة بهلالين

لكنني أردت نيسان وأخاه

(...)

ومن أشهر شعراء الشعر الحر: محمود درويش، أدونيس، خليل حاوي، يوسف الحال، نازك الملائكة، بدر شاكر السياب، صالح عبد الصبور وأحمد المعطي حجازي وغيرهم.

الفرق بين الشعر الحر والشعر العمودي:

أ- ملامح الشعر الحر:

- الإنسان فيها جوهر التجربة، بمعاناته وحياته اليومية وقضاياه النفسية والاجتماعية والسياسية.
- الجنوح إلى الأسطورة والرمز والتراث الشعبي والإشارات التاريخية.
- الوحدة العضوية مكتملة، فالقصيدة بناء شعوري متكامل.

- شعر واضح، يتحدث فيه الشاعر ببساطة وعفوية، ولغة تقترب من لغة الخطاب اليومي.

ب- ملامح الشعر العمودي: يعتبر الشعر العمودي أساس الشعر العربي وجذوره، وأصل كل أنواع الشعر ويتميز بتكونه من مجموعة من الأبيات وانقسام كل بيت إلى شطرين (صدر وعجز) ويخضع في كتابته لقواعد الخليل بن أحمد الفراهيدي والتي تدعى بعلم العروض أين يتقيد الشاعر بالوزن والقافية والروي.

مفهوم الشعر عند نزار قباني: يتخذ مفهوم الشعر عند نزار قباني بحسب الغاية الشعرية ذاتها، فعندما تكون الغاية جمالية يأخذ الشعر عنده مفهوما جماليا، وعندما تكون الغاية اجتماعية يأخذ المفهوم الاجتماعي، أي أن مفهوم الشعر يتحدد عند نزار قباني حسب الموقف «وهكذا فلا يكاد يقبض له على تعريف للشعر حتى يقرأ لنزار تعريفا آخر يصاغ وفق السياق الشعري ذاته»[6]. وهو ما صرح به نزار قباني في الكثير من الكتابات النثرية حيث رفض أن يضع تعريفا أكاديميا للشعر قائلا في كتابه ما هو الشعر؟: «ليس هناك نظرية للشعر (....) كل شاعر يحمل نظرية معه، والشعراء الذين حاولوا أن ينظروا للشعر خسروا شعرهم ولم يربحوا النظرية، فالشعر هو أنا (.....)»[7]. ثم يقول: «مهمة القصيدة كمهمة الفراشة (....) تضع على فم الزهرة دفعة واحدة ما جنته من عطور ورحيق متنقلة بين الجبال (...) وتلك (القصيدة) تفرغ في قلب القارئ شحنة من

الطاقة الروحية تحتوي على جميع أجزاء النفس، وتنتظم الحياة كلها»[8]. إذن مهمة الشعر عنده ليست أخلاقية. ويقول في موضع آخر: «يجب أن لا نطلب من الشعر أكثر من هذا»[9].

مفهوم نزار قباني للخلق والجمال:

أ-مفهومه للخلق: انطلاقا من أقوال نزار قباني عن الشعر ومفهومه له نستشف نظرية للخلق، فالشعر عنده يحيط بالوجود كله وينطلق في كل الاتجاهات فترسم ريشته كل ما تقع عينه عليه، ويرى أن الذين يدعون أن الشعر يدعو إلى الفضيلة مخطئون، لأن مهمة الفن حسب رأيه ليست الدعوة إلى الفضيلة، بل هي مهمة الأديان وعلم الأخلاق، ونزار يؤمن بجمال القبح، ولذة الألم، «وطهارة الإثم، فهي كلها أشياء صحيحة في نظر الفن حسب رأيه طبعا»[10]. وفي هذا المقام يستشهد بقول لمروتشه في نقد المذهب الأخلاقي في الفن: «أن العمل الفني لا يمكن أن يتجه إلى بلوغ لذة أو استبعاد ألم لأن الفن من حيث هو فن له شأن بالمنفعة وقد لوحظ من قديم الزمان أن الفن ليس ناشئا عن الإرادة ولئن كانت الإرادة قوام الإنسان الخير، فليست قوام الإنسان الفنان»[11] فليس الفنان من حيث هو فنان عالما ولا فيلسوفا ولا أخلاقيا فقط يطلب منه أن يوافق بين ما ينتج وما يشعر به.

ثم يضيف منتقدا النزعة الأخلاقية للفن: «لوصح لنا نتقبل ما زعمته المدرسة الأخلاقية في الفن لمات الفن مختنقا بأبخرة المعابد ولوجب أن نحطم كل التماثيل العارية لأنها إثم يجب أن لا تقع عليها العين»[12].

ب- مفهومه للجمال: لقد ثار نزار قباني على بعض التقاليد البالية التي وضعها المجتمع الشرقي للحد من عطاء وقدرات المرأة، فطالب بتحريرها من جميع القيود وإعطائها حقها في كل شيء إلى جانب الرجل، ويكمن مفهوم الجمال عنده (نزار قباني) في كل ما تعطيه المرأة من جمال الجسد والروح معا.

ومن جهة أخرى نجد نزار قد أزال الغطاء عما كان ممنوعا ومحظورا ألا وهو موضوع المرأة، حيث استطاع أن يكون أول شاعر يصف الحب بكل ثقة وبكل علانية كاسرا بذلك كل القيود الاجتماعية.

ففي دواوينه يتعرض لحب المرأة واصفا إياها في كل جوانبها متغزلا بها وبمفاتنها ملفتا النظر إليها وذلك عن طريق وصفها وصفا دقيقا وبإلحاح، ومن أهم الأسباب التي جعلته يكتب شعر المرأة نذكر العامل الوراثي الذي ورثه عن أبيه من حساسية مفرطة تجاه أشياء الجمال وتفاصيله.

نموذج من شعر نزار قباني

صباحك سكر

إذا مر يوم ولم أتذكر
به أن أقول صباحك سكر
ورحت أخط كطفل صغير
كلاما غربيا على وجه دفتر
فلا تضجري من ذهولي وصمتي
.....
.....
وشعرك ملقى على كتفيك
كبحر أبعاد ليل مبعثر
.....
.....
إذا ما جلست طويلا أمامي

كمملكة من عبير ومرمر

.....

.....

أحبك فوق المحبة.....لكن

دعيني أراك كما أتصور[13]

الخاتمة: إن التقيد بنظام القصيدة دعى إلى التخلي عنه واللجوء إلى الشعر الحر الذي يمتاز بالعفوية في اختيار الألفاظ هذا من جهة، ودون التقيد بالوزن والقافية والروي من جهة أخرى، ثم إن الأخلاق ليس لها مكانة في الشعر عند نزار قباني جاعلا إياه من مهمات المدارس الأخلاقية والأديان، فالفن وخاصة الشعر في نظره بعيدا كل البعد عن النزعة الأخلاقية، والدليل أن معظم شعره جاء عن المرأة مجسدا فيها الجمال المطلق.

الهوامش:

1. جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الأول مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر، سنة 426هـ – 2005 م. ص52.
2. الربعي بن سلامة، تطور البناء الفني في القصيدة العربية دار الهدى للنشر والتوزيع الجزائر، 2006، ص92 .
3. سعد بوفلاقة، الشعريات العربية، المفاهيم والأنواع والأنماط منشورات بوشه للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007 ص152.
4. ن.م، ص155. ص156.
5. ن.م،. ص157 .
6. حبيب بوهرر، تشكل الموقف التنفيذي عند أدونيس ونزار قباني، ص241.
7. نزار قباني، الأعمال النثرية الكاملة، ج8، ص26– ص27 .
8. نزار قباني، ديوان طفولة نهد، ط 23، أبريل، 1989، ص4.

9. ن . م، ن. ص .
10. ن. م، ص7 .
11. ن. م، ص7 . ص8 .
12. ن. م، ص8.
13. نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، الرسم بالكلمات، ط15، ج7، لبنان2000، ص 469.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الربعي بن سلامة، تطور البناء الفني في القصيدة العربية، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006.
2. حبيب بوهرر، تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ط1، دار علم الكتب الحديثة، 2008.
3. جورجي زيدان، تاريخ أدب اللغة العربية، مجلد1، مكتبة البحوث والدراسات دار الفكر، 2005 .
4. سعد بوفلاقة، الشعريات العربية، المفاهيم والأنواع والأنماط، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007 .
5. نزار قباني، الأعمال النثرية الكاملة، ج8 .
6. نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، الرسم بالكلمات، ج7، ط15، أكتوبر 2000 .
7. نزار قباني، طفولة نهد، ط23، أبريل 1989.